الإعتبار في آيات الليل والنهار
(دراسة موضوعية)

د. ليث إسماعيل حماد حمادي الدليمي
معهد الفنون الجميلة / الرمادي

ملخص البحث

موضوع البحث في علوم القرآن وتفسيره، بعنوان: (الإعتبار في آيات الليل والنهار- دراسة موضوعية-) يختصُّ البحث بدراسة آيات الليل والنهار في القرآن الكريم، التي من معرفتها والعلم بها يمكننا التوصل إلى الفهم الحقيقي الدقيق لما أودعه الله سبحانه في آيتي الليل والنهار الكونيتين من المشاهد والدلائل للاعتبار بها من العباد والدالة على عظمة الخالق وكمال قدرته ووحدانيته، ولا يمكن إنكار هاتين الآيتين؛ لتكرارهما المستمر أمام أعين الناس، ولكنَّ أكثر الناس في غفلة، وإعراض، وضياع للوقت وعدم شكرهم للمنعم المتفضل، لذا وضعت خطة بحثية لدراسة تتناسب ومعاني ودلالات الآيات القرآنية المتعلقة بالليل والنهار، للوصول إلى المقاصد التي تشخص الخلل وتساعد على إصلاحه، إذ اشتملت الدراسة على: التمهيد، وأربعة مباحث، ومن ثم التوصل إلى جملة من النتائج التي تبرز أهمية الموضوع وأساليب المعالجة، على وفق منهج تربوي، دعوي إيماني، للإفادة منها في الحياتين الدينية، والدنيوية.

Abstract:

The subject of this research is related to Qur'anic sciences and its interpretation and is titled as "AL-E'etibar Fi Ayat AL-Layl Wa AL-Nahar، subjective study".

The research includes the Qur'anic verses of day and night by which we can reach to an accurate and real understanding of the evidences and signs that Allah wants us to know to take them as lessons which refer to Allah Greatness and oneness. These verses cannot be ignored because we can daily see their affect but most people don't aware or reject them with denying the grace of Allah. For this reason I put a search plan that fits the representations of the Qur'anic verses related to day and night to reach the aims which diagnose the defect and help remedy it. Thus the study includes a preface and four topics، which led to a series of results that declare the importance of the subject and the ways of treatment according to an educational advocacy approach in order to benefit it during the religious and worldly lives.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، الملك القهار، الرحيم الغفار، مكوّر النهار على الليل، ومكوّر الليل على النهار، أسبل الليل فأظلم للسكون والاستتار وأنار منار النهار، فأضاء للحركة والانتشار، وجعلها مواقيت للأعمال، ومقادير للأعمار، ومعالم يُعرَفُ بهما أوقات الليالي والأيّام والشهور والأعوام، في دار الفناء، وحجة قائمة، وحكمة بالغة، ودليلاً للاعتبار، والصلاة والسلام على نبيّنا ورسولنا محمد ﷺ وآله الطيبين، وصحابته أجمعين.

أما بعد؛ فإنَّ كتاب الله هو أصدق الحديث، وخير الهدي. من اهتدى به فلا يضّل ولا يشقى، والإهتمام به سعادة للنفس، وراحة للبدن، واطمئنان للقلب، وصلاح للبال، ورحمة وسكينة في الدنيا، والفوز بالجنة، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة، تنزيل من ربِّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى ﷺ، ليكون نذيراً وبشيراً للعالمين.

كلنا نعيش الواقع الاجتماعي والحياتي اليومي، إذ نرى الناس يسهرون، ويلهون، ويتمتعون إلى ساعات متأخرة من الليل، وينامون الساعات الطوال من النهار، وهذا خلاف السنن الإلهيّة في الخلق، وهديّ النّبيّ ﷺ، ممّا يورّث الكسل، والخمول، والضعف في جميع مجالات حياتهم التعبدية، والدنيوية، وفيه هدر الطاقات، وضياع الأوقات من غير نفع ولا فائدة. بل هو نتاج لغزو فكري، واتباع لثقافات وتقاليد أُمم أخر، قد نهانا وحذّرنا رسول الله ﷺ من اتباعهم وتقليدهم، وأمرنا بمخالفتهم، لذا توكلت على الله سبحانه في دراسة موضوع الليل والنهار كآيتين كونيتين ظاهرتين في كل واحدة منهما سنَّ الله تعالى سنناً، لحكمةٍ، وغايةٍ، رحمة بالعباد، ونِعَمَ ظاهرة، ورتّب على ذلك الشكر للمنعم، ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون.

أما سبب اختياري لموضوع البحث فرغبتي في خدمة كتاب الله على قدر الوسع والطاقة، وحاجتنا اليوم إلى الرجوع إلى كتاب الله تعالى والعمل بمقتضاه، وكذلك الواقع الذي نعيشه في مخالفة سننه تبارك وتعالى وهديّ نبيه ﷺ، وسيكون البحث في تناول آيات الليل والنهار القرآنية، ومما تقدَّم تبيَّن أهمية البحث في التذكير، ووعظ الناس، للرجوع إلى هديّ الله واتباع رسوله الكريم ﷺ، واحتوى البحث على: تمهيد ، وأربعة مباحث، وهي كالاتي:

أولاً: التمهيد، ويتضمن:

التعريف بمفردات العنوان، والمعنى العام.

بيان الفروق اللغوية لبعض الألفاظ في سياق آيات الليل والنهار، وهي: أ- خَلَقَ ب- جَعَلَ ج- سَخّرَ.

ثانياً: أمّا المباحث فهي أربعة، كالآتي:

المبحث الأول: القَسمُ بالليل والنهار.

المبحث الثاني: المقارنة بين الليل والنهار في الأفضليّة والإستمراريّة، وفيه:

أيّهما الأفضل الليل أم النهار؟

كيف الحال عندما يكون الليل أو النهار سرمداً؟

المبحث الثالث: المنهج الإسلامي في الليل والنهار.

المبحث الرابع: تدرّج الخطاب الإلهي في آيات الليل والنهار، وفيه:

العرض والبيان.

الحث على الاستماع والاعتبار.

الإيمان واليقين.

الشكر والثناء.

وفي نهاية البحث وضعت (خاتمة) ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، ومن ثمَّ قائمة بمصادر البحث، وملخص باللغة الانكليزية.

وختاماً ... الله أسأل أن يتقبل هذا الجهد المتواضع، فالتوفيق منه تبارك وتعالى، والفضل له، ذو الفضل العظيم، والخطأ والتقصير من العبد الفقير، فاستغفر الله وأتوب إليه، وصلّى الله على رسولنا الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أولاً: التمهيد

١- التعريف بمفردات العنوان، والمعنى العام.

أ- التعريف بمفردات العنوان:

الاعتبار لغةً: إذا قلت: اعتبرت الشيء، فكأنك نظرت الشيء فجعلت ما يَعنِيك عِبَراً لذاك فتساوى عندك[١].

وأما في الاصطلاح: فالاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ليس بمشاهد، قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحَشر الآية ٢][٢].

آيات: جمع، مفردها (آية): وهي العلامة الظاهرة، وحقيقة لكلِّ شيءٍ ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهَرُ ظهورُهُ، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم انه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته اذا كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، والآية مشتقة من (التأبّي) الذي هو التثبت والإقامة على الشيء، وكل جملة في القرآن دالة على حكم آية، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [الحِجر الآية ٧٧] . فهي من الآيات المعقولة التي تتفاوت بها المعرفة بحسب تفاوت منازل الناس في العلم[٣]. وفي بحثنا نجمع بين الآيات الكونية المنظورة والآيات القرآنية المقروءة المبيّنة لها والدالة عليها.

الليل لغةً: يقال: ليلٌ وليلةٌ، وجمعها ليال، ولياليل، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ٢﴾ [اللَّيل الآية ١] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢﴾ [الفَجر الآية ٢].

والليل: ما يعقب النهار من الظلام، وهو من مغرب الشمس إلى طلوعها.

وأما في الاصطلاح: فهو من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر ويقابل النهار[٤].

النهار لغةً: هو اسم وهو ضد الليل، والنهار اسم لكل يوم، والليل: اسم لكل ليلة[٥].

وقيل: هو اسم للضياء، المنفسخ الظاهر لحصول الشمس بحيث ترى عينها أو معظم ضوئها[٦].

وأمّا في الاصطلاح: فهو ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي الأصل هو عكس الليل ما بين طلوع الشمس إلى غروبها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٢][٧].

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة، لابن فارس مادة (عبر)، ٢/٢٠٩- ٢١٠.

(٢) ينظر المفردات للراغب، مادة (عبر) ص٣٢٢.

(٣) ينظر المفردات: للراغب، مادة (أيّ) ص ٣٧-٣٨.

(٤) ينظر المعجم الوسيط، ٢/٨٥٠ باب اللام، مادة (الليل).

(٥) ينظر تهذيب اللغة لابي منصور الازهري، ٦/١٤٩، مادة (نهار).

(٦) ينظر الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص٢٧٣.

(٧) ينظر المفردات، للراغب، مادة (نهر)، ص٥٢٩- ٥٣٠.

وجرت العادة أنْ يطلق على الليل والنهار بـــ (يوم) وهذا تغليباً كما يطلق على الشمس والقمر (القمران). والأصل أنَّ النَّهار هو اليوم كما جاءت الأدلة الشرعية بذلك قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سَبَإ الآية ١٨] ، وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحَاقَّة الآية ٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجُمُعَة الآية ٩] . ويضاف النهار إلى اليوم، فيقال: سافرت نهار يوم الجمعة، ولا يقال سافرت ليلة يوم الجمعة[1].

- **المعنى العام**

تعددت آيات الله تبارك وتعالى الدالة على عظمته ووحدانيته وكمال قدرته وربوبيته في السماوات والأرض وما بينهما، وفي أنفسنا كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذَّارِيَات من الآية ٢٠ الى الآية ٢١] ، وسخَّر الأشياء كلها للإنسان، وخلق الإنسان لعبادته، وأمدَّه بلوازم وشرائط ما يقوم به من العبودية للخالق، فالعقل والنظر من مقومات هذه العبادة.

وخلق آيات كونيّة منظورة للتفكر والاعتبار، وأنزل آيات قرآنية للتلاوة والإيمان والعمل بها والاستبصار.

ومن جملة هذه الآيات الكونية الليل والنهار، وما احتوتا عليه من أشياء وأمور تجعل الناظر المتفكر والمتأمل لهذا الخلق العجيب أنْ يراجع نفسه ويرجع البصر ويدقق النظر، كقوله تعالى:﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [المُلك من الآية ٣ الى الآية ٤] خاضعاً منكسراً لعظمة الخالق جلّ جلاله، ويمتثل لأوامره ونواهيه، ويسعى جاداً في كسب رضاه، ويرجو رحمته ويخاف عقابه، فالسماء الدنيا وما فيها والأرض وما فيها من بحار وأنهار وأشجار وثمار ودوابٍّ، وجدت لخدمة الإنسان، وخلق الإنسان لعبادته واستخلافه، قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات الآية ٥٦] ، فآيات الليل والنهار من جملة هذه الآيات وجعل في كل منهما حجة بالغة، وحكمة عظيمة، ونعمة ظاهرة، ولكل منهما نواميسه وسننه، وتبيّن ذلك في آياته القرآنية، وطلب من عباده الامتثال وتحقيق المصالح الدنيوية والأُخروية، والشكر للمنعم المتفضل تبارك وتعالى، ولكنَّ أكثر الناس في غفلة، فغيّروا وبدّلوا في السنن الإلهيّة وهم لا يشكرون، كما قال تعالى: ﴿شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سَبَإ الآية ١٣].

٢- بيان الفروق اللغوية لبعض الألفاظ في سياق آيات الليل والنهار.

المتدبر لآيات القرآن الكريم المتعلقة بآيتي الليل والنهار الكونيتين يجد في السياق الألفاظ (خلق)، (جعل)، (سخّر)، لكل واحدة من هذه الألفاظ دلالتها اللغوية ونصيبها في التأويل، فـ (خَلَقَ) غير (جَعَلَ) و (سَخَّرَ)، والعكس كذلك، لذا وجب علينا معرفة ذلك الاختلاف في اللغة والمعنى من سياق الآيات القرآنية، وكالآتي:

---

(١) ينظر الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص٢٧٣.

خلق: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبيَاء الآية ٣٣].

جاء في السياق (خلق) والخلق: أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل، ولا احتذاء، قوله تعالى: ﴿خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البَقَرَة الآية ١٦٤]. أي: أبدعها، بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البَقَرَة الآية ١١٧]. وليس الخلق الذي هو الابداع، إلا لله تعالى ولهذا قال في الفضل بينه تعالى وبين غيره: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النَّحل الآية ١٧][1].

ومن أسمائه وصفاته تبارك وتعالى: (الخالق- البديع) جلّ جلاله.

جعل: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يُونُس الآية ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النَّمل الآية ٨٦].

جاء في السياق (جعل): وهو لفظ عام في الأفعال كلها، وهو أعم من: فَعَلَ، وصَنعَ، وسائر أخواتها، وتتصرف على خمسة أوجه[2]. وتأتي (جَعَلَ) بمعنى (خَلَقَ) في أكثر المواضع.

والعرب تفرق بين (جَعَلَ) إذا كانت بمعنى خلق، وبين (جَعَلَ) إذا لم تكن بمعنى (خَلَقَ)، فإذا كانت بمعنى (خَلَقَ) فلا تعديها، إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى (خَلَقَ) عدتها إلى مفعولين، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ [يُوسُف الآية ٢][3].

و(جَعَلَ) صورة إضافية على الخلق فبعد الخلق خَصَّ سبحانه وتعالى كلاً من الليل والنهار بما يؤهلهما أن يكونا آيتين من آيات الوجود الدالة على عظمته ووحدانيته، فالليل له خصائصه وسماته بما يؤدي وتحقيق الحكمة من خلقه، وكذا النهار، فتنقسم الموجودات بين الليل والنهار، منها ما هو ليلي، ومنها ما هو نهاري، ويمتد ذلك إلى الحيوانات، منها ما يمارس حياته ليلاً، ومنها في النهار، ولا يستثنى من ذلك حتى العبادات، وهذا يُعَبَّرُ عنه بـــ (جَعَلَ)، والله أعلم.

سخَّر: قوله تعالى:﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ﴾ [النَّحل الآية ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النَّحل الآية ١٢].

---

(١) ينظر المفردات: للراغب: مادة (خلق) ص١٦٣-١٦٤.

(٢) ينظر المفردات للراغب: مادة (جعل) ص٩٩.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٧٨.

وهنا جاء السياق بلفظة (سَخّر)، وهذا اللفظ يدل على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا: سخّر الله ﷻ الشيء، وذلك إذا أذله لأمره وإرادته[١].

فالتسخير: سياقه إلى الغرض المختص قهراً، كقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزُّخرُف الآية ١٣][٢].

وفي قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾ تدخل أوجه وأغراض أُخر منطوية في هذا التسخير، وهي:

١. اختلاف: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [يُونُس الآية ٦]، أي: مجيء كل واحد منهما خلف الآخر وتعاقبهما، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفُرقَان الآية ٦٢]. أي: يخلف كل واحد منهما الآخر.

٢. يولج: قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج الآية ٦١]. فهنا تنبيه ما جعل الله تعالى من زيادة الليل في النهار، وزيادة النهار في الليل، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها، وذلك أنَّ الولوج: كلمة تدل على دخول الشيء[٣].

٣. يغشى: أي: ستره، والغشاوة: ما يغطي به الشيء[٤]، قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٥٤].

٤. يقلّب: تقليب الشيء: تغييره من حال إلى حال[٥]. قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [النُّور الآية ٤٤]. قيل: تقليبهما أن يأتي بأحدهما بعد الآخر، وقيل: نقصهما وزيادتهما، وقيل: باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر، ونفع وضرٍّ[٦]. وقيل: من حرٍّ إلى بردٍ، ومن بردٍ إلى حرٍّ[٧].

٥. يكوّر: كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزُّمَر الآية ٥]. كوْر الشيء: إدارته، وضمُّ بعضه إلى بعض ككور العمامة، وهنا إشارة إلى جريان الشمس في مطالعها، وانتقاص الليل والنهار وازديادهما[٨].

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (سخر) ٥٩٢/١.
(٢) ينظر المفردات: للراغب، مادة (سخر)، ص٣٤.
(٣) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (ولج) ٦٤٦/٢.
(٤) ينظر المفردات: للراغب، مادة (غشى)، ص-٣٧٥.
(٥) ينظر المفردات: للراغب، مادة (قلب) ص، ٤٢٨.
(٦) ينظر الجامع لأحكام القرآن: ٥٧١/١٢.
(٧) ينظر: تسيير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٣٧.
(٨) ينظر المفردات، للراغب، مادة (كور) ص، ٤٦٢.

٦. نسلخ: قوله تعالى:﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس الآية ٣٧]. السلخ: هو إخراج الشيء من جلده ثم يحمل عليه[١]. قوله: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس الآية ٣٧] ، أي: ننزع[٢].

ثانياً: المباحث: وهي أربعة :

المبحث الأول: القسم باللّيل والنَّهار.

المبحث الثاني: المقارنة بين الليل والنهار في الأفضلية والاستمرارية.

المبحث الثالث: المنهج الإسلامي في الليل والنهار.

المبحث الرابع: تدّرج الخطاب الإلهي في آيات الليل والنهار.

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (سلخ) ٥٦٧/١.

(٢) ينظر المفردات، للراغب، مادة (سلخ) ص، ٢٤٦.

المبحث الأول

القسم باللّيل والنَّهار

القسم: أصل ذلك من القسامة، وهي: الأيمان التي تقسم على أولياء المقتول إذا ادّعوا دَمَ مقتولهم على ناسٍ اتهموهم به، ثمَّ صار اسماً لكل حَلِفٍ، قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [النَّحل الآية ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المَعَارِج الآية ٤٠][1]. أقسم الله تعالى بذاته الشريفة بأسمائه وصفاته في كثير من آيات القرآن الكريم، ليدلل على عظمته ووحدانيته، وسعت ملكه، وجبروته، وهو بديع السماوات والأرض، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، تقدست اسماؤه، وجلَّ ثناؤه، ولا إله غيره، قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ ۖ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النَّحل الآية ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحِجر الآية ٩٢].

وكذلك أقسم بحياة رسوله الكريم، ﷺ، قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحِجر الآية ٧٢]. وأقسم سبحانه بالأمكنة والأزمنة، والكواكب والنجوم والنباتات، وكلِّ ما خلق، وأبدع في السماوات والأرض وما فيهنَّ، ومن جملة ذلك ما يتعلق بالليل والنهار، فقد أقسم بهما جميعاً قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشَّمس من الآية ١ الى الآية ٤]، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [اللَّيل من الآية ١ الى الآية ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [الفَجْر من الآية ١ الى الآية ٤].

أقسم الله سبحانه (بالفجر)، أي: بانبلاج الصبح لما فيه من انقضاء الليل، وظهور النهار، وانتشار الخلائق في طلب أرزاقها، وربما إرادة صلاة الصبح؛ لأنَّ الملائكة تشهدها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسْرَاء الآية ٧٨]. ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾، لا عشر، إلّا عشر ذي الحجة؛ لما فيها من الفضل العظيم، لأنَّها أيّام الاشتغال بالحجِّ، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (ما من أيّام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيّام) يعني: أيّام العشر، قالوا يا رسول الله: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه، وماله فلم يَرجِعْ من ذلك بشيء)[2]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ أي: سُري فيه من عرفاتٍ إلى مزدلفةٍ ليلةَ

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة (قسم) ٢ /٤٠٠، وينظر المفردات للراغب، مادة (قسم)، ص، ٤٢٠.

(٢) صحيح البخاري، ١/٢٤٩، (٩٦٩)، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيّام التشريق، وسنن الترمذي، ص ٢٤٩-٢٥٠، رقم (٧٦٩) ابواب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيّام العشر.

النَّحر، وقيل: ليلة القدر؛ لأنَّ الناس تقومها، والأول أولى لمناسبة سياق الآية.

فائدة: في الأصل (يسري) وهو الصحيح، وحذفت الياء بلا حاذف، واكتفي بالكسرة عن الياء للدرج في القراءة، ولما سُئِلَ أحد الفضلاء عنها؟ أجاب، فقال: الليل لا يسري، وإنّما يُسرى به، فلمّا عدل في معناه، عدل عن لفظه موافقة كقولهم: (ليل نائم)، أي: يُنام فيه، و (نهار صائم)، أي: صام فيه[١].

وممَّا تقدَّم يتبيَّن لنا أن الله سبحانه الخالق يُقسِم بمخلوقاته، وكل ما صنع وأبدع، وكلها مقهورة وخاضعة لسلطانه، والمسخَّرة بأمره وإذنه؛ ليدلل على ما يأتي: ليظهر عجائب خلقه، وصنعه، وكمال قدرته، ووحدانيته، وربوبيته، بديع السماوات والأرض، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، ولا يشرك في حكمه أحداً، فالآيات الكونية للنظر والتفكر والاعتبار والآيات القرآنية للتلاوة، والتعبد والأحكام، كما في قول أبي العتاهية:

فيا عجباً كيفَ يُعصى الإلهُ ... أمْ كيفَ يَجْحدُهُ الجاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ ... تَدُلُّ على إنَّهُ واحدُ[٢]

إظهار آلائه ونعمائه، وعطائه لعباده، بتنوع النعم والمنن، إذ لا لمخلوق من دورٍ في خلق الله وإبداعه، وتنوع المقسوم به من آيات الله يجعل الإنسان عاجزاً مقهوراً، لعظمة الخالق فأقسم تبارك وتعالى على أنّها من آياته، والإنس والجنّ ليس بإمكانهم خلق شيء من هذه الموجودات، ولو كان بعضهم لبعض ظهرياً، فأثبت قهرهم ونقصانهم على أنْ يخلقوا شجرةً، أو ثمرةً، أو ذباباً، ولو اجتمعوا له، سبحانه تقدّست أسماؤه.

كلُّ ما أقسم به الله تعالى لا يخلو من نفعٍ عظيم، وفائدةٍ جليلةٍ، أو ترهيبٍ وإنذارٍ شديدٍ، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التِّين الآية ١] وقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١﴾ [القِيَامَة الآية ١]، يشير إلى معانٍ دنيوية وأُخروية في الثواب والعطاء أو في الجزاء والعقاب، والله أعلم.

فالخالق جلَّ جلاله يُقْسِمُ بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أنْ يُقْسمَ إلاّ بالخالق، وما نرى ونسمع من القسم والحلف بالوالدين والأموات، والمخلوقات جميعا لا يصح إلا بالاضافة إلى الله سبحانه وأسمائه وصفاته، كأن نقول: وربِّ الكعبة، والذي خلق السماوات والأرض، والذي بعث محمداً بالحقِّ، والذي أنزل القرآن وما شابه ذلك، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»[٣]، وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حلف بالأمانة فليس منّا»[٤].

---

(١) ينظر بيان المعاني، عبد القادر ملا حويش، ص١٤٤.

(٢) ديوان أبي العتاهية، ص ١٢٢.

(٣) سنن أبي داود، ص٥٥٢، رقم (٣٢٤٨)، كتاب الإيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥٢، رقم (٣٢٥٣) كتاب الإيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالأمانة.

المبحث الثاني

المقارنة بين الليل والنهار في الأفضليّة والإستمرارية

١. أيُّهما أفضل الليل أم النهار؟

فالتفضيل بين الأمم والرسل والملائكة، والبلدان، والأمكنة، والأزمنة، وبين الليالي والأيّام، قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزُّخرُف الآية ٣٢].

فالعربُ كأمَّةٍ لما أودع الله فيها من الخصال ومعالي الأمور اختارها لحمل الرسالة إلى البشرية، ومكة أحبُّ البلاد إلى الله، وفيها بيته الحرام، والمدينة أطيب البقاع، فيها دفن النّبيّ ﷺ، وليلة القدر أفضل الليالي، ويوم الجمعة، ويوم عرفة أفضل الأيّام، وتفضيل الأنبياء والرسل بعضهم على بعض قوله تعالى: ﴿* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البَقَرَة الآية ٢٥٣]، وأفضلهم أُولي العزم، وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ [الأَحزَاب الآية ٧]، ولا خلاف أنَّ نبيّنا محمد ﷺ أفضلهم ثم ابراهيم ثم موسى، فالأنبياء مشتركون بمنزلة النبوة، ولكنهم يتفاوتون بما سوى ذلك من المعجزات والكرامات والأحوال، فأفضلية نبيّنا محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النِّسَاء الآية ٤١]، ومحمد ﷺ وأمته شهداء على الأمم وأنبيائها يوم القيامة، وكذلك التفضيل بين الكتب السماوية، فالقرآن الكريم هو الأكمل والأشمل والأتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المَائِـدَة الآية ٤٨]. والتفضيل بين الملائكة كذلك، فحملة العرش، والملائكة المقربون، والوحي جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، والملائكة الذين شهدوا بدراً لهم الأفضليّة على غيرهم.

والتفاضل بين صحابة النّبيّ ﷺ إذ إنَّ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والعشرة المبشرة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان لهم الفضل على غيرهم؛ لذا فإنَّ الله تعالى خلق المخلوقات وأوجدها، وفضَّل بعضها على بعض حتى النباتات والزروع والثمار فقال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ﴾ [الرَّعْد الآية ٤].

وهنا يبقى السؤال قائماً: أيُّهما أفضل الليل أم النهار؟

الليل والنهار آيتان من آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ

ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ [الإسْرَاء الآية ١٢] ، بيّن سبحانه حال ووصف كل من الآيتين والحكمة من خلقهما، فالليل مظلمٌ والنهار مبصرٌ، وفي الظلام تقيد الحركة، ويكون السكون والراحة، ويقل السعي والكسب والنشاط، والإبصار في النهار، للانتشار والحركة والطلب والسعي لعمارة الأرض وكسب المعاش، وقوله تعالى: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الإسْرَاء الآية ١٢] أيْ: طلب الزيادة والتدرج في السعي للوصول إلى غايات مرجوة بتيسير العزيز الحكيم. وقوله تعالى: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ﴾ [الإسْرَاء الآية ١٢] وهي من الغايات السامية الضرورية في الحياة، وذلك أنَّ اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما، ليعلم عدد الأيّام والشهور، والفصول، والأعوام، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يُونُس الآية ٦]. فالأيّام تبدأ بطلوع الشمس وغروبها، والشهور بإهلال الهلال ومن ثم عودته في كلّ مرَّة، وقوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البَقَرَة الآية ١٨٩]، فكل إهلال يمثل شهراً، حتى يكتمل العدد (١٢) مرّة فيكون عاماً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [التَّوْبَة الآية ٣٦]، فأفضلها شهر رمضان المبارك، والإهلال يكون تسعاً وعشرين أو ثلاثين يوماً، وهذه أيّام الشهر القمري، وجاء عن إبن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا، وهكذا»[(١)]، يعني: مرة تسعةً وعشرين، ومرّةً ثلاثين، وما تقدَّم كلّه يمثل الحكمة والغاية، من آيتي الليل والنهار، ولكنْ إذا أردنا المقارنة بينهما من باب التفضيل لا بدَّ من بيان الآتي: فمثلاً العبادات مشتركة بين الآيتين، فالصلاة منها في الليل، ومنها في النهار، والزكاة فيهما معاً من غير انمياز، والحجّ فيهما معاً، أمّا الصوم ففي النهار، وفي الليل ينزل الله تبارك وتعالى نزولاً يليق بجلاله من غير كَيْفٍ كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (يَنْزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له)[(٢)].

أمّا نزول القرآن في ليلة القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القَدْر الآية ١]، أي: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدُّخَان الآية ٣] . أمّا نزول القرآن الكريم على قلب النّبيّ ﷺ، ففي الليل والنهار، والإسراء والمعراج بالنّبيّ ﷺ كان ليلاً، قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسْرَاء الآية ١].

---

(١) صحيح البخاري، ٢/ ٣٩، رقم (١٩١٣) كتاب الصوم- باب قول النّبيّ ﷺ «لا نكتب ولا نحسب».

(٢) صحيح البخاري، ١/ ٢٩٣، رقم (١١٤٥) كتاب التهجد بالليل، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، وصحيح مسلم ١/ ٣٦٨، رقم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافروقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه.

وهكذا تتوزع وتتنوع الفضائل بينهما لديمومة، واستمراريّة العبادة، واتصال العباد بربِّهم تبارك وتعالى، ولكنَّ الصالحين، وخواصّ العباد يفرحون بالليل؛ لأنَّ فيه الخلوة والانقطاع عن الخلق، وزوال الموانع والحجب، فتراهم ينشطون، ويجتهدون في قيامهم للتهجد والمناجاة والتضرع، وخلوة الحبيب بحبيبه وهُم في لذّة من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ [المُزَّمِّل الآية ٦]، وقال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذَّارِيَات من الآية ١٧ الى الآية ١٨].

وكان الله سبحانه يأمر أنبياءه والذين آمنوا معهم بالخروج ليلاً ويأخذ أقوامهم بالعذاب، فالنجاة ليلاً، وعذاب أقوامهم نهاراً، فمثلاً نبيَّ الله لوط عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الحِجْر الآية ٦٥]، وفي موسى عليه السلام وقومه، قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾ [الدُّخَان الآية ٢٣]، وفي الهلاك كان نهاراً، قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحِجْر الآية ٧٣]، وفي فرعون وقومه، قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشُّعَرَاء الآية ٦٠]، فكان مصيرهم الغرق، وكل الوقائع والأحداث الجهاديّة وأيّام المسلمين، يوم بدر، وفتح مكة، والقادسية، واليرموك، والفتوحات الأُخر كانت نهاراً، كما في منظومة الحرب آنذاك في الصباح، وينتهي عند الغروب، قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤﴾ [العَادِيَات من الآية ١ الى الآية ٤]، أي: الخيل التي تغير على الأعداء صباحاً[1].

رُبَّ سائل يسأل: إنّ الله نفى التسوية بين الظلمات والنور في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠﴾ [فَاطِر من الآية ١٩ الى الآية ٢٠].

الجواب، الظلمات: تعني الكفر، والذنوب، والمعاصي والجهل.

أمّا النور: فيعني: الإيمان، والطاعات، والعلم.

وهذا من التمثيل والتشبيه المعنوي، وبالتأكيد هنا لا تستوي الظلمات والنور، فالنور هو الأفضلُ والأحبُّ إلى الله سبحانه وجزاؤه الجنة، والظلمات لا يريدها سبحانه ويبغضها، ولها جزاء النار.

أمّا الظلمة في آيات الليل والنهار، فتعني الموتة الصغرى، والنور هو الإحياء، وهذا من التمثيل والتشبيه الحسي المألوف، والله أعلم.

وبعد التوضيح فلا يمكننا القول .. بأفضليّة أحدهما على الآخر، وإنّما أحدهما يكمل الآخر، فلا حياة بلا ليل ولا نهار، ولا عاش إنسان، ولا حيوان، ولا نبت نبات، وفي هذا الجو المشحون بالحركة والقيام والنشاط، لا بدَّ من الراحة، والسكون؛ لتجديد الطاقة وعواملها، ويتحقق المراد والحكمة من تعاقب الليل والنهار، وذلك من تحقق المصالح الشرعية، والدنيوية في معرفة الأيّام، والشهور، والأعوام، والبيوع، والمعاملات،

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٨٨/١٩.

والعبادات الصلاة وأوقاتها، والزكاة، والحجّ، والصوم، والعدّة، وغيرها، سبحانه تقدّست أسماؤه وجلَّ ثناؤه.

٢. كيف الحال عندما يكون الليل أو النهار سرمداً؟

السرمد: الدائم[١]، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القَصَص من الآية ٧١ الى الآية ٧٢].

أي: قل لهم يا محمد، يمتنُّ الله تعالى على عباده بما سخّر لهم من الليل والنهار، الّذين لا صلاح لهم بدونهما، وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم باقياً إلى يوم القيامة، لأضرّ ذلك بهم، ولسئمته النفوس وضجرت منه، وكذلك أنه لو جعل النهار سرمداً باقيا إلى يوم القيامة لتعبت الأبدان، وكلّت الهمم، وعجزت من كثرة الكسب والاشغال[٢]والناس؛ لتكرار تعاقب الليل والنهار، واختلافهما لم يتفكروا، ويعقلوا، إلا القليل منهم، إنّ في تعاقب الليل والنهار آيات رحمة، وتدبُّر لما يتحقق من مصالحهم الدنيوية والأخروية.

ويمكن القول افتراضاً، ماذا يحصل للناس لو امتدَّ الليل إلى مقدار سبعة ليال، أو أكثر، أو أقل؟ الذي يحصل أنَّهم يملّون ويتضجرون، ويشعرون بالوحشة، والاضطراب والخوف معاً من استمرار الظُّلمة، وتَعطّل الحركة، والمعاش والكسب، وسائر مصالحهم، وكذلك القول: ماذا يحصل للناس لو امتدّ النهار إلى مقدار سبعة ليال، أو أكثر، أو أقل؟ عندها يصيب الناس الملل والتعب والإرهاق ونفاد الطاقة. وهذا الأمر يشمل بالإضافة للإنسانية، الحياة الحيوانية، والحياة النباتية، لتوقفها عن النمو لفقد عناصر الطاقة والتي تستمدها من تعاقب الليل والنهار. فكيف حال العباد لو أنَّ الله جعل الليل أو النهار في استمراريّة باقية إلى يوم القيامة؟ فمن رحمته جعل لهم الليل سكينة، وسباتاً، وقراراً، والنهار نشاطاً، وكسباً، وعملاً، وذلك كلُّه من فضله تبارك وتعالى على عباده، كي تتحقق مصالحهم المعاشية والكسبية، ويتحقق الاستخلاف في الأرض[٣]، والعبد ينبغي له أن يتدبَّر نِعَمَ الله عليه، وكيف الحال بِعَدَمِها، فإنَّه إذا قارن بين وجودها وعدمها، تنبَّه عقله، وفطن ضميره للمِنّة الإلهيّة عليه.

فجعل الليل لما خُلِقَ له، والنهار لما خُلِقَ له، وذلك من سنن الله في خلقه، وما على الخلق إلا الإلتزام والامتثال بأداء سنن الله تعالى كما أراد وشرع، وأن التغيير والتبديل لسنن الله، يمثل الجحود والكفر، وعدم الشكر لله تبارك وتعالى على آلائه ونعمائه، وهنا المقصود من بحثنا وسنبين ذلك لاحقاً.

---

(١) ينظر المفردات، للراغب، مادة (سرمد) ص ٢٣٨.

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١٠٨/٦.

(٣) ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٧٠٨/٥.

المبحث الثالث

المنهج الإسلاميّ في الليل والنهار

المنهج: النهج، والمنهج: الطريق الواضح، ونهج الأمر وانهج وضح، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائِدَة الآية ٤٨][١].

يمكننا التوصل إلى معرفة منهج المسلمين، وطبيعة حياتهم اليومية، وأدائهم التعبدي، وممارستهم لأعمالهم الكسبيّة في الزراعة، والتجارة، والرعي، وفي جميع أحوالهم، ما جاء في الحديث الصحيح في معرفة صلاة الرسول الكريم ﷺ المكتوبة، يبيِّن بوضوح ما يهدف اليه بحثنا، فعن أبي المنهال عن أبي برزة رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ يُصلِّي الصبح وأحدنا يعرف جليسه، ويقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة، ويُصليّ الظهر إذا زالت الشمس، والعصرَ وأحدنا يذهب إلى أقصى المدينة رجع والشمس حيّةٌ، ونسيت ما قال في المغرب، ولا يبالي بتأخير العشاء إلى ثلث الليل، ثم قال: إلى شطر الليل، وقال معاذ: قال شعبة: ثم لقيته مرةً فقال: أو ثلث الليل)[٢].

إلّا أنَّ في الحديث لم يذكر بعد صلاة الظهر القيلولة، وإنّما ذكر صلاة العصر، وكأنّه يحمل الحديث على أنَّ هذا التوقيت كان في الشتاء والنهار قصير؛ وذلك لِما روي عنه ﷺ أنه قال: (قيلوا فإنّ الشياطين لا تقيل)[٣]، وكذلك ما جاء في الحديث الصحيح من حديث سهل، قال: (ما كنا نقيل ولا نتغدَّى إلا بعد الجمعة)[٤]، وعن سهل أيضاً قال: كنا نصلّي مع النبي ﷺ الجمعة ثم تكون القائلة[٥]. إذاً القيلولة تكون بعد صلاة الظهر.

يتبيّن لنا كيف كان حال الأمة وسلفها الصالح، على وفق هذا المنهج الذي رسمه لهم، وقام بتطبيقه رسول الله ﷺ، والذين آمنوا معه ومن اتبعهم في عصور الفضلاء، ومن بعدهم، فالصلوات الخمس في وقتها أداءً، وبعد الشروق يخرجون لممارسة أعمالهم اليومية وكسب معايشهم، وأداء الواجبات المكلفين بها، كل حسب مهنته وصنعته، ومن ثم صلاة الظهر، وبعدها تبدأ القيلولة، وهي فترة راحة واستجمام من عناء التعب والمشقة من

---

(١) ينظرمعجم مقاييس اللغة لابن فارس: مادة (نهج) ٢/ ٥٢٨. والمفردات للراغب، مادة (نهج) ص٥٢٩.

(٢) صحيح البخاري، ١/ ١٤٧، رقم (٥٤١) كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الظهرعند الزوال.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم (١٦٤٧) ٤/ ٢٠٢.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٢٤٠، رقم (٩٣٨)، كتاب الجمعة، باب فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وصحيح مسلم ١/ ٤١٣-٤١٤، رقم (٨٥٩) كتاب الجمعة، باب صلاة الجمعة حين تزول الشمس.

(٥) صحيح البخاري ١/ ٢٤٠، رقم (٩٤١) كتاب الجمعة، باب القائلة بعد الجمعة.

الفجر إلى الظهر.

ونهى رسولنا الأكرم ﷺ عن النوم ما بين المغرب والعشاء؛ لكراهته، وكان يكره أيضاً الحديث والسَّمر بعد العشاء، عن أبي برزة الأسلمي، قال: (كان رسول الله ﷺ ينهى عن النوم قبلها، والحديث بعدها)[١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (جدَبَ لنا رسول الله ﷺ – السَّمر بعد العشاء، يعني: زجرنا)[٢].

قال الإمام النووي (رحمه الله): وسبب كراهة الحديث بعدها، أنه يؤدي إلى السهر منه غلبت النوم عن قيام الليل، أو الذكر فيه، أو عن صلاة الصبح في وقتها الجائز، أو في وقتها المختار، والأفضل، ولأنَّ السَّهر في الليل سبب الكسل في النهار عمّا يتوجه من حقوق الدين والطاعات، ومصالح الدنيا، قال العلماء: والمكروه من الحديث بعد العشاء هو ما كان في الأمور التي لا مصلحة فيها، أمّا ما فيه مصلحة وخير فلا كراهة فيه، وذلك كمدارسة العلم، وحكايات الصالحين، ومحادثة الضيف، والحديث في إصلاح ذات البَيْن والشفاعة للمظلومين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلُّ هذا لا كراهة فيه[٣]. أقول: ما كان صحابة رسول الله ﷺ أهل لهو ولعب وعبث وتضييع الأوقات بما لا فائدة منه ولا خير، وإنما أرشدهم إلى ذلك لما فيه منافع دنيوية وأُخروية، إذ أثبت أهل العلم في زماننا أنَّ النّوم في أوّل الليل له فوائد صحية كبيرة للإنسان من حيث تقوية جهاز المناعة، وإعادة النشاط والحيوية لكل أجهزة الجسم، فالنوم أربع ساعات من أوّل الليل خير من نوم النهار كلِّه، ويساعد على القيام للتهجد في جوف الليل والسحر.

كذلك كان يحثهم عليه الصلاة والسلام على صلاة الوتر، وقيام الليل، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: الوتر ليس بحتم كصلاة المكتوبة، ولكنَّ سنَّ رسول الله ﷺ، قال: (إنَّ الله وترٌ يحبُّ الوتر، فأوترِوُا يا أهل القرآن)[٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضيَ الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (يا عبد الله لا تكنْ مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل)[٥].

والذي تقدّم يمثل منهج الأمّة في ليلها ونهارها، وحالنا اليوم يقول العكس، إذ جُعِلَ الليلُ نهاراً، والنهارُ ليلاً، خلاف السنن الكونية، والهدي النبوي الشريف، وهذا حال أغلب الناس، وهذه المخالفة في اتباع هديّه وسنّته ﷺ،

---

(١) سنن أبي داود، ص٨٠٩، رقم (٤٨٤٩)، كتاب الأدب، باب النهي عن السمر بعد العشاء.

(٢) سنن ابن ماجة، ص١٣٦، رقم (٧١٤) باب النهي عن النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها.

(٣) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٤٦/٥.

(٤) سنن الترمذي، ص١٥٨، رقم (٤٥٦) أبواب الوتر، باب ما جاء أنَّ الوتر ليس بحتم، وقال: حديث حسن.

(٥) صحيح البخاري، ٢٩٤/١-٢٩٥، رقم (١١٥٢) كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، وصحيح مسلم، ٥٦٥/١، رقم (١١٥٩) كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم.

وهجرها واتباع سنن الآخرين، ما حذّر منه عليه الصلاة والسلام، كما في الحديث الصحيح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النّبيّ ﷺ قال: «لتتّبِعنّ سَنَنَ مَنْ قَبلِكُمْ شِبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو سلكوا جُحرَ ضَبٍّ لسلكتُمُوهُ»، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى، قال: (فَمَنْ)[1].

والحديث الشريف يوضّح ويبيّن بصورة جليّة التغيير والتبديل، واتباع اليهود والنصارى في عاداتهم وتقاليدهم، والتي تضُرّ بالإسلام والمسلمين وتؤدي إلى البعد والتجافي لما أراد الله سبحانه، ورسوله الأكرم ﷺ، وهذا من الغزو الفكري المدروس، والمخطط له، وبدأ يؤتي أكله، لذا يتوجب على أولي الأمر، ورؤوس القوم من العلماء، والدعاة، والمربين وكل المسلمين الحريصين على دينهم أن ينتبهوا لهذا الأمر ويرتقوا بدورهم بالإرشاد والوعظ والنصح وبيان تلك الحقائق، وبيان العلل ومعالجتها، وإلاّ خسرنا كثيراً، بضياع الشباب وكثير من فئات المجتمع باللعب واللهو، والكسل والخمول عن أداء واجباتهم الدنيويّة والدينيّة، والله أعلم.

(١) صحيح البخاري ٤٦٦/٢، رقم (٣٤٥٦) كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. وصحيح مسلم، ٦٢٧/٢، رقم (٢٦٦٩) كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

المبحث الرابع

تدّرج الخطاب الإلهي في آيات الليل والنهار

تدّرج الخطاب في سياق الآيات القرآنية بخصوص الليل والنهار ومرَّ بمراحل أربعة، هي:

١- العرض والبيان:

أنزل الله تبارك وتعالى آياتٍ بيّنات عرض فيها وبين للعباد الغاية، والحكمة من الليل والنهار، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الفُرْقَان الآية ٤٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾﴾ [النَّبَإ من الآية ٩ الى الآية ١١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النَّبَإ الآية ١٠] يعني: ستراً للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن[١]، وقوله تعالى:﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ [الفُرْقَان الآية ٤٧] ، أصل السبت: القطع، أي: قطعاً للعمل، وذلك إشارة إلى ما قال في صفة الليل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [القَصَص الآية ٧٣][٢]. والمعنى: أي، راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الاشغال، وأنه سكون الحركة، وقيل: السبات: نوم ثقيل، أي: جعلنا نومكم ثقيلاً؛ ليكمل الراحة، وإعادة نشاط أجهزة الجسم العقلية، والبدنية، ولاستقبال يوم جديد من العمل والحركة المستمرة، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ أو ﴿مَعَاشٗا﴾ في الآيتين، أي: من الانتشار للمعاش، فالنهار سبب الأحياء للانتشار، فشبّه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة، وكان ﷺ، إذا أصبح قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور)[٣]، فجاء الخطاب في سورة الفرقان بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، وفي سياق سورة النبأ جاء بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ وذلك لأنَّ السياق في سورة الفرقان في إثبات وحدانيته، وتفرده سبحانه، بإبداعه وصنعه، وخلقه، فناسب السياق المراد من الآيات، والله أعلم. أمّا في سورة النبأ وهم يَسألون عن النبأ العظيم، يوم القيامة وأهواله وما سيحدث فيه، أثبت المولى عزوجل أنّه الله له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فهو الرحمن الرحيم، الرؤوف، الودود بالمؤمنين وهو القهار الجبار، المنتقم من الكافرين والمتكبرين والمنافقين فجاء السياق بالتفخيم والتهويل؛ ليرتقي إلى عظم الحدث وشدة الموقف.

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن. ٣٨/١٣.

(٢) ينظر المفردات، للراغب، ص، ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) صحيح البخاري ١٧٨/٤، رقم (٦٣١٤)، كتاب الدعوات، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى، وصحيح مسلم ٦٤٦/٢، رقم (٢٧١١) كتاب الذكروالدعاء والتوبة والإستغفار، باب ما يقول عند النوم، وأخذ المضجع.

ومما تقدّم، يكون المعنى: الليل يستر الأشياء والأحياء، فتبدو الدنيا وكأنها تلبس الليل، وتتشح بظلامه، فهو لباس، وفيه تنقطع الحركة، ويسكن وينام الناس، وكثير من الحيوانات، والطير، فهو سبات، ثم يتنفس الصبح وتنبعث الحركة، وتدب الحياة، فهو النشور، ومن ذلك الموت الصغير، والبشر غافلون عما في هذه الحياة من دلالات على تدبير الله تعالى الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

٢. الحث على الاستماع والاعتبار.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يُونُس الآية ٦٧].

والمعنى: أي: جعل لكم الليل مظلماً؛ لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً؛ لتنتشروا فيه، فأضمر مظلماً، صفة الليل، وقابله بذكر (مبصراً) صفة النهار، ومن ثم ذكر (لتسكنوا) العلة والحكمة من الليل، وأضمر لتنتشروا، وهي العلة والحكمة من النهار، والتي تقابل (لتسكنوا) وتخالفها في المعنى، وهذا من اللفِّ والنّشر في علم البيان، فما أعظمه وأبلغه من خطاب، بقليل من الكلمات يعطيك الوافر من المعاني والدلالات، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾، أي: علامات ودلالات لاستماع اعتبار، واستبصار عن الله تعالى، وفهم وقبول، لا سمع تعنت وعناد، وغفلة، ويستدل بهذا أنَّ الله وحده المعبود، وأنّه الإله الحق، وما سواه باطل[1].

ويتمثل بهذا الخطاب ويعملون به بعد استماعه الذين خصّهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمَر الآية ١٨].

٣. الإيمان واليقين.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النَّمل الآية ٨٦].

وهنا ينبّه تبارك وتعالى على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع، الذي يجب طاعته، والانقياد لأوامره، وتصديق أنبياءه فيما جاءوا به من الحق، فجعل لعباده الليل كاللباس يسترهم بظلمته، تسكن بسببه حركاتهم، ويستريحون من نصيب التعب في نهارهم، وجعل لهم النهار مضيئاً مشرقاً كي يتصرفوا في المعايش، والمكاسب، والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها.

ولو لم يكن هناك ليل، فكان الدهر كله نهاراً؛ لانعدمت الحياة على وجه الأرض، وكذلك لو كان الدهر كله ليلاً، بل لو كان الليل أو النهار أطول مما هما عليه الآن عشر مرات فقط، لحرقت الشمس في النهار كل نبات، ولتجمد في الليل كل نبات، وعندئذ تستحيل الحياة، ففي الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة ووجدها وهي

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٤٢.

بتقدير العزيز العليم آيات للعقلاء، ولكنَّ أكثرهم لا يعقلون، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المُؤمِنُون الآية ٨٠].

وجاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النَّحل الآية ٧٩]، أي: ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا، وقضية الإيمان هنا أن يتصرف المؤمنون بأن يجعلوا الليل كما أراد الله سبحانه، ويتصرفوا في النهار كما أراد الله سبحانه، على وفق السنن الإلهية، والهديّ النبويّ الشريف، لا بتغيير النواميس، وما شرع الله سبحانه، وبيّن رسوله الكريم ﷺ ويتمثل بهذا الخطاب ويعمل به الذين جاء على لسانهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٨٥].

٤- الشكر والثناء

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غَافِر الآية ٦١] وقوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القَصَص الآية ٧٣] ، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البَقَرَة الآية ١٨٥]، أي: كي تشكروا، وذلك بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، فدوام النعم بالشكر لا بالجحود والكفر، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾﴾ [إِبۡرَاهِيم الآية ٧].

فالشكر: تصوُّر النعمة وإظهارها، ويُضاد الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها، وللشكر ثلاثة أضرب، وهي:

شكر القلب: وهو تصوُّر النعمة.

شكر اللسان: وهو الثناء على المنعم.

وشكر سائر الجوارح: وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه[1].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٤٣] ، يماثل قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سَبَإ الآية ١٣]، ففيه تنبيه أن توفية شكر الله صعب، ولذلك لم يُثن بالشكر من أوليائه إلا على اثنين، قال في إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۦۚ﴾ [النَّحل الآية ١٢١] ، وقال في نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٣] ، والله عزوجل من صفاته الشكور فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٧﴾﴾ [التَّغَابُن الآية ١٧] ، وأيضاً الشاكر، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾﴾ [النِّسَاء الآية ١٤٧] فينبغي للعبد أن يتحمَّل ويتحلَّى بهذه الصفة الجليلة كبقية صفات الله ﷻ كالعفو، والكريم، والحلم، والصبر.

---

(١) ينظر المفردات، للراغب: مادة (شكر) ص٢٧٥.

فزيادة النعم، وديمومتها بالشكر، وبالكفر والجحود زوالها وحرمانها، كما أخبرنا عزوجل في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النَّحل الآية ١١٢].

فالليل والنهار من نِعَمِ الله وآلائه على عباده، وذلك فضل الله، فبعد الاستماع لخطابه تعالى، والإيمان به، يترتب على عباده الشكر والثناء لفضله وعطائه، وهل الشكر أن نقول: شكراً يا ربَّنا؟ أي: الشكر باللسان فقط، بلا هذا مطلوب، وممدوح، ولكنَّ الشكر القلبي باستشعار الفيض الإلهي، والفضل العظيم للمنعم ﷻ، ومن ثم جعل الجوارح تعبَّر عمَّا في القلب من الثناء، والحمد لله ربِّ العالمين، وذلك بالامتثال لما أراد الله ورسوله في كيفية الإفادة من هذه النعم وتوظيفها لخدمة الدنيا في العبادة، وخدمة الإنسانية من الأداء العملي، والوظيفي، وفي السكون والحركة، على وفق السنن والنواميس الكونية، وهديّ الرسول الكريم ﷺ، وهنا نكون قد وفقنا لشكر المنعم المتفضَّل، وكنّا من الشاكرين.

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٤٣]، وهذا الذي نجده في حياة الناس في زماننا ، إذ أكثر مجتمعاتنا الإسلامية، غيرّوا، وبدّلوا، فترى الناس يسهرون الليالي إلى وجه الصباح، وينامون ساعات طويلة من النهار، وبذلك ضيَّعوا المصالح الدينيّة والدنيويّة، والله المستعان، لذا يتطلب ويجب على أولي الأمر من العلماء والولاة، ودعاة، ومربين، بتبني هذا الأمر وأخذه على وجه الجدِّ والإلزام، وبيانه للناس، على وفق خطة مدروسة، بصورة دروس، وخطب، ومحاضرات، سواء في المساجد أو دور العلم، مدارس وجامعات، والبرامج الدينية في الفضائيات، أو في المجالس العامة، وبيان الضرر المترتب على هذا الأمر، وأنَّ القضية تمثل ديناً قبل أن تكون دنيا، وتمثل الضرر بهما معاً؛ لأنَّ الطاقات الشبابية، والإمكانات تذهب سدى، بلا فائدة، ولا منفعة، وهذه الآثار السلبية نتائج للغزو الفكريّ الذي يجتاح الأمّة؛ ليستأصل شأفتها ويفتت عضدها، ويذهب قوتها، وللأسف صار هذا الأمر يتحكم في طبائع الناس وعاداتهم، وقد نهانا رسولنا الكريم ﷺ عن ذلك وحذّرنا كما أشرنا سابقاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لتتّبعنّ سَنَنَ مَنْ قَبلِكُمْ شِبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو سلكوا جُحرَ ضَبٍّ لسلكتموه)، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: ((فَمَنْ))[1].

فما أراده الله سبحانه هو الأحكم علينا، والأفضل لنا، والأرحم بنا، وما جاء به رسولنا الأكرم ﷺ فيه سعادة الدّارين، وترك هذين الأصلين واتباع غيرهما، فيه الضعف والهوان، والضياع، والخسران المبين.

(١) تم تخريجه ص٢٢.

الخاتمة

بعد الحمد لله تعالى والثناء عليه، ومن ثم إتمام هذا البحث، كان لزاماً عليَّ أن أوجز أهم ما توصلت إليه من النتائج، وهي:

أولاً: إنَّ دراسة الآيات القرآنية المتعلقة بالليل والنهار، لبيان الحكمة والغاية من خلقهما، والتعبد به، والربط بين المقروء، والمنظور من آيات الليل والنهار القرآنية والكونية، للاعتبار والاستدلال على هذا الفضل الإلهي، والنِّعَم التي لا تحصى، تجعل العباد في استسلام وانقياد للخالق جلّ جلاله.

ثانياً: إنَّ الله سبحانه يُقسم بمخلوقاته تعظيماً لذاته، وكمال قدرته في الخلق، والإبداع، والإيجاد، والذي لم يشاركه فيه أحد، ولا يجوز لمخلوق أن يقسم بمخلوق آخر؛ لذا أقسم الله سبحانه، بالليل والنهار كما أقسم بغيرهما من المخلوقات.

ثالثاً: إنَّ في خلق الليل والنهار وتسخيرهما مصالح دنيوية، وأخروية، إذ لولا وجودهما لما عرف الناس الأيّام والشهور، والفصول، والأعوام، ولا عرفوا صلاةً، ولا حجّاً، ولا صياماً، ولا شتاءً، ولا صيفاً، ولا نبت زرع، ولا عاش حيوان، إذ لا حياة.

رابعاً: جعل الله سبحانه الليل للسكون وللراحة، وإعادة تنظيم البدن من الإرهاق والتعب أثناء النهار، وجعل النهار للانتشار والحركة، وطلب المعاش والكسب، فجعل وظائف أحداهما مكان الآخر، تغيير، وتبديل لسنن الله الكونية، وهديّ نبيّه الأكرم ﷺ.

خامساً: بعد نزول الآيات القرآنية المتعلقة بالليل والنهار، فهمت الأمة ما لها، وما عليها، على وفق المنهج الربّاني، وهدي النّبيّ ﷺ فأجتهدت، وبلغت المعالي، في المجد، والعزِّ والرُّقيّ.

سادساً: لَمّا تخلَّت الأمّة في زماننا، عن تنظيم، وقتها، وبدأت بتغيير النواميس والسنن الشرعية في احترام الوقت في الليل والنهار، وتأثرت بثقافات وعادات أعدائها بعد الغزو الفكري الذي أصابها من برامج التسلية واللهو، جعلها تعبث بالوقت فجعلت ليلها نهاراً، ونهارها ليلاً، ممَّا أورثها الكسل والعجز والخمول، وأدّى بها إلى التخلف والضعف في كل مجالات الحياة حتى صارت أمّة تأكل، وتشرب، وتلهو، وتنام، أي: أمّة مستهلكة غير منتجة، إذ لا إنجاز لها ولا عطاء، إلا ما شاء ربي.

سابعاً: الليل والنهار نعمتان عظيمتان ظاهرتان، ولاستمرار تكرارهما غفل الكثير عن شكر هذه النعمة، بل جحدوها، ولا تعرف قيمة النعم، إلاّ بفقدها، لذا من فهم المراد من الخطاب الإلهي وعمل به فقد شكر، ومن غفل وجحد وأنكر، فقد كفر النعمة، والقليل هم الشاكرون.

ثامناً: يجب على ولاة الأمر من السلطة والعلماء، والدعاة، والفضلاء من هذه الأمة تحمل مسؤولياتهم في إعادة تنظيم الوقت واحترام الزمن على وفق ما أراد الله سبحانه، من وضع برامج دينية، ومناهج تثقيفية، فالليل لما يناسبه، والنهار لما يناسبه، وتصحيح مسار حياة الناس وتنظيمها كي تساعدهم على القيام بواجباتهم البدنيّة، والدينيّة، والدنيويّة، والله أعلم.

مصادر البحث ومراجعه

* القرآن الكريم.

بيان المعاني، السيد عبد القادر ملا حويش آل غازي العاني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.

تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠هـ-٧٧٤هـ)- دار ابن الجوزي- ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، أبو منصور، (ت، ٣٧٠هـ) المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط /١، ٢٠٠١م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (١٣٠٧هـ-١٩٧٦م)، شركة الريان، (١٤٣٧ه-٢٠١٧م).

الجامع لأحكام القرآن- لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الحديث- القاهرة- ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

ديوان أبي العتاهية- دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها/ أبو عبد الرحمن محمد ابن ناصر الدين الألباني ت (١٤٢٠ه)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض، ط /١، ١٩٩٥-١٤١٥هـ.

سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي- تحقيق ودراسة مركز البحوث وتقنية المعلومات- دار التأصيل- القاهرة- ط /١، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.

سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢هـ-٢٧٥هـ) دار الفجر للتراث- القاهرة.

السنن، للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني تحقيق ودراسة، مركز البحوث وتقنية المعلومات- دار التأصيل- القاهرة- ط /١- ١٤٤١هـ-٢٠١٩م.

صحيح البخاري، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤هـ-٢٥٦هـ)، دار الفجر للتراث- القاهرة- ط /٢، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (٢٠٤هـ-٢٦١هـ) دار التوقيفية للتراث- القاهرة، ط /١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى ابن مهران العسكري، المتوفى:

نحو: (٣٩٥ه)، حققه وعلق عليه، محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة- مصر.

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشرق، القاهرة، ط /٣٧، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين (إبراهيم مصطفى، احمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة.

معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، المتوفى (٣٩٥هـ) وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط /٣.

المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، ضبط، هيثم طعيمي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ط /١.

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي المتوفى (٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط /٢- ١٣٩٢هـ.